

خواطر حول الموت

للدكتور حامد طاهر

الحياة مليئة بفرص كثيرة
أما الموت..
فليس لنا معه سوى فرصة واحدة.
ونحن فى العادة ننفر من الموت
لأنه يسلبنا الحياة التى نتمسك بها
ونحرص، رغم قساوتها، عليها
كما أنها تشغلنا بأحداثها المتلاحقة
التي تمنحنا بعض الأمل،
وتراود أحلامنا بالسعادة..

الموت ذوعان:
قد يأتى فجأة
وأحياناً خلال النوم،
وقد يكون بطيئاً، وبالتدريج
وذلك عندما تسبقه الأمراض
وتتوقف بعض أجهزة الجسم عن العمل
ويبدأ الإنسان رحلة العلاج
مع الأطباء، وفى المستشفيات
ظننا منه أنهم سيعيدونه لكامل صحته
ولكن هيهات!
فالمرض هو المقدمة التمهيدية للموت

بعض الناس يتحسّب جيداً لقدوم الموت
فيسرع بشراء مدفن

وقد يضع فى دلابه كفنا
وهناك من يوزع ثروته على من يحب
أو يتبرع بجزء منها للأعمال الخيرية
ولما شك أن هذا قد يريحه
لكنه لا يخلو من عتاب من حوله
وأحيانا غضبهم!

وكما يكون الموت فى بعض الأحيان هادئا
فإنه أيضا قد يكون عنيفا وساحقا
مثلما يقع فى حادث سيارة
أو احتراق طائرة
أو غرق سفينة
وهنا من يسأل:
كيف يكون بالنسبة لهؤلاء حساب القبر؟
أو أسئلة منكر ونكير؟!

ومن أسوأ أنواع الموت
ذلك الذى ينتظره
المحكوم عليه بالإعدام
فهو يكاد يموت فى كل يوم
وإذا استلقى للنوم
وجده مائلا فى ظلمة المكان...
وقد تطورت أشكال الإعدام وتنوعت
من الإحراق بالنار
إلى قطع الرقبة بالسيف
أو بالمقصلة
إلى الشنق بالحبل
أو الماخناق فى حجرة الغاز
والمصق بالكبرى الكهربية
وأحيانا الرمى بالمرصاص

لقد تحدث الفلاسفة كثيرا عن مشكلات الحياة
لكنهم لم يتحدثوا إلّا قليلا .. عن مشكلة الموت
وهذا غير عادل
لأن الحياة والموت حقيقتان متقابلتان
بل إنهما طرفان لخيوط واحد
هو عمر الإنسان
الذى يبدأ بالحياة وينتهى بالموت

وقد تعود الناس جميعا
أن يشعروا بالحزن الشديد
حين ينتزع الموت من أحضانهم
أحد أحبائهم
وهذا ما يجعلهم ينفرون من الموت
ويخافونه
لكنهم يكادون يتجاهلون

أن الموت الذى فجعهم بهذه المقسوة
كان من الممكن جدا
أن ينزعهم هم .. من وسط أحبابهم
وأنة مهما غاب عنهم ، أو تأخر
فإنه لا محالة آت إليهم

إن الناس عموما تستثقل حديث الموت
بل وتتشاءم منه
لكن الكثير منهم لا يعلم
أن الله تعالى ذكر بكل وضوح
أنه هو (الذى خلق الموت والحياة)
لماذا ؟

لكى يستخلص صاحب العمل الأحسن
وإن .. فإن الأمر جد لا عبث فيه
وهو يتطلب الكثير من العمل والجهد والاستعداد

كيف يتعامل معظم الناس مع الموت ؟
حين يذهبون إلى المقابر
لدفن راحل منهم
يقفون أمام الجثمان صامتين خاشعين
وقد يبكى بعضهم من شدة التأثر
لكنهم فى طريق العودة
يخوضون فى أحاديث شتى
عن إرهاب اليوم ، وأعمال الغد...
وما أسرع ما ينسون صاحبيهم الراحل!
ثم ما يلبثون أن يمارسوا حياتهم المعتادة
وكأن شيئا لم يكن.

أقدم مداحم المشرق الأوسط
وهى ملحمة جلجامش البابلية
تتحدث عن بطل خارق
كان يمتلك كل شئ :
السلطان ، والثروة ،
والقوة البدنية المفرطة
وحين غيب الموت أعز أصدقائه
خرج فى رحلة طويلة جدا ، وشاقة
بحثا عن نبتة الخلود
التي تحفظ عليه حياته
وتصونه من الموت
وبعد أن حصل عليها
سرقته منه حيّة مأكرة
فعاد إلى مدينته خائب الرجاء
وقد أدرك أخيرا
أنه كإنسان .. لا بد أن يموت
مثل سائر البشر

أما أمير الشعراء أحمد شوقي
فقد ظل طوال حياته مشغولاً بسؤال:
— ماذا يحصل للإنسان بعد وفاته ؟
وفى معظم قصائد المراثي لديه
كان يستصرخ المتوفى قائلاً:
— قل لى بالله عليك : ماذا وجدت ؟
لكن شوقي لم يدرك جيداً
أن الجدار القائم بين الحياة والموت
يستحيل اختراقه من أى إنسان حيٍ
وهذا معناه أن الموت تجربة شخصية
شخصية جداً
لا يعرفها إلا من دخل فيها!
